المشرق العربي تحت الحكم العثماني

الأستاذ محمد بوسلامة،جامعة تيارت

1- المشرق العربي قبل التوسع العثماني:

كان سقوط بغداد، عاصمة الخلافة العباسية، عام 258 م على يد المغول، مرحلة ركود في بعض أجزاء من العالم العربي الإسلامي. وبرغم الهجمات التي تعرّض لها المشرق العربي، إلا أن تأثيرات هذا الغزو المباشر عليه اقتصرت على العراق الّذي ضُمّ إلى الدولة المغولية[1]، أن لسقوط بغداد آثار سيّئة على مصير منطقة المشرق العربي، و أبرز هذه الآثار، فقدان هذه المنطقة لوحدتها السياسية، ذلك السلاح الّذي واجهت به مختلف التحديات والتعديات التي جابهتها داخليا وخارجيًا[2]، وهكذا أصبح المشرق العربي مجزّءًا إلى إمارات ودويلات متناحرة جعلت منها مطمعًا لكل طامع ، ولذا مع منتصف القرن الثلاث عشر، ظهرت على مسرح الأحداث دولة استطاعت أن تعيد للمشرق العربي والإسلامي مكانته التاريخية والحضارية وهي دولة المماليك[3]، حيث أننا نجد أن الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة تعترفوتقرّ بالدور والأهمية الكبرى التي لعبتها دولة المماليك في تطوّر أحداث المشرق العربي وتبرز ذلك في:

- نجاح المماليك في إنقاذ المشرق من الخطر المغولي، وأنه لولا اتّحاد بلاد الشام ومصر في ذلك الوقت ما أمكن تحقيق الانتصار على المغول.

- كما تزعّم المماليك العالم الإسلامي لفترة من الزمن خاصة بعد استقدام الخليفة العباسي إلى مصر، وبذلك انتقلت الخلافة العباسية إلى القاهرة وبقيت مصر مركز الخلافة الإسلامية ومحط أنظار المسلمين[4].

لقد حاول المغول التوسّع على حساب بلاد الشام بعدما سقطت عاصمة الخلافة العباسية بغداد. إلا أن سلطان المماليك في مصر قطز، خرج على رأس جيش إلى الصالحية لملاقاة المغول. والتقى الجمعان في معركة عين جالوت عام 1260م، انهزم على إثرها المغول وفرّ جيشهم أمام ضربات المماليك الّذين طاردوهم حتى أخرجوهم من بلاد الشام إلى ما وراء الفرات[5]. إن الوحدة التي

تحقّقت بين مصر والشام، عقب عين جالوت، مكّنت المماليك من الوقوف بالمرصاد لأية محاولة من المغول، وهكذا أصبحت سلطنة المماليك في مصر أكبر قوة في المنطقة، عملت على حماية مصر وسوريا من أعظم خطر ظل يهدّد العالم العربي الإسلامي في ذلك الوقت[6].

لقد انتقلت زعامة العالم العربي الإسلامي إلى مصر والشام بعد أن ضاع العراق في يد المغول. وما زاد في أهمية مصر، انتقال الخلافة العباسية إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر بيبرس[7] (1260-1277م) الّذي استقدم أحد أبناء البيت العباسي وبايعه بالخلافة فلُقّب "بالمستنصر بالله" وقام هذا الأخير بتقليد السلطان المملوكي "بالديار المصرية، والبلاد الشامية والديار البكريةوالحجازية واليمنية والفراتية". وهكذا استمرت مصر حتى الفتح العثماني عام 1517 كقاعدة للخلافة الإسلامية ومحطّ أنظار المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها[8].

يجمع كثير من المؤرخين على أن عوامل انحطاط دولة المماليك في أواخر القرن الخامس عشر تعود إلى:

- فقدانها صفة الدولة العسكرية بعد ابتعاد الجيش عن ميادين المعارك منذ معركة عين جالوت واهتمامهم بالصّناعة والتّجارة.
- انتشار الفساد الإداري وشراء المناصب وكثرة الظلم والقمع.
- ضعف الخلفاء العباسيين الّذين أصبحوا تحت سيطرة حكام المماليك.
- وقوفهم عاجزين أمام تحدّيات البرتغاليين والصفويين الشيعة.
- انتشار محبّة العثمانيين بين الطّبقات الشعبية وحتى بين المماليك أنفسهم الّذين تحوّل بعضهم إلى مؤيّد ومناصر للعثمانيين، مما هدّد أسس دولة المماليك.
- تخبّط دولة المماليك في الأزمة الاقتصادية بعد تحوّل الطرق التجارية، مما أرغمها على البحث عن مصادر أخرى فلم تجد إلا فرض الضرائب، مما ولد سخطًا لدى الأوساط الشعبية[9].

كانت التجارة ذات أهمية بالغة بالنسبة لمصر خاصة التجارة بين أوربا والشرق الأقصى مرورًا بالشرق الأوسط، حيث كانت تجارة التوابل والحرير تنقل عبر طريقين يمران بالمنطقة العربية يسمى أحدهما طريق الحرير والآخر طريق التوابل 10. وفي عام 1498م وصل فاسكو دي ڤاما البرتغالي إلى الهند عبر طريق رأس الرجاء الصالح، ليظهر طريق آخر لا يمر عبر

الأراضي العربية. وبعد عودته إلى لشبونة ومعه حمولة من التوابل، أوجد طريقًا آخر إلى الشرق الأقصى، يمتاز بتكاليف قليلة وأنه أكثر أمانًا من الطريق العابر للمشرق العربي[11]. ومنذ ذلك التاريخ، أصبحت البرتغال منافسًا حقيقياوخطيرا لدولة المماليك في توزيع التجارة الشرقية على دول أوربا. ووصل بهم الأمر أن هدّدوا السفن المصرية المتوجّهة إلى الهند، حتى أنهم سيطروا على الممرات والمضائق إلى البحر الأحمر، كما تعرّضت السفن العربية لهجوم الأسطول البرتغالي في مياه المحيط الهندي[12].

في عام 1509 أحرز البرتغاليون نصرًا حاسمًا على الحملة البحرية التي أرسلها سلطان المماليك الغوري[13] في موقعة "ديو". وكانت هذه الموقعة الانطلاقة للانتصارات البرتغالية والسيطرة الحقيقية على التجارة الشرقية حتى منتصف القرن 17م[14].

لقد أقام البرتغاليون قواعد عسكرية بحرية وبرية لإغلاق المعابر المؤدّية إلى الخليج العربي عبر مضيق هرمز وممر عدن لإغلاق طريق البحر الأحمر إلى مصر[15]. لقد تحوّلت التجارة العالمية من البحر الأحمر ومصر إلى جنوب إفريقيا ولم تعد مصر مركزًا رئيسيًا للتجارة العابرة وانتقل مركز التجارة من الإسكندرية إلى لشبونة. وهكذا، أخذت طاقة مصر الاقتصادية تتدهور وأدى ذلك إلى ضعف قوتها العسكرية والسياسية، مما مكّن العثمانيين من هزيمتها عام 1517م، وانتهى الأمر بخضوع العالم العربي إلى السيطرة العثمانية باستثناء المغرب الأقصى ومنطقة نجد بقلب شبه الجزيرة العربية لوعورة المنطقة طبيعيًا وتضاريسيًا.

وبذلك فقد العرب في مطلع القرن السادس عشر كيانهم الدولي الخاص، وتحدّدت علاقتهم مع بقية دول العالم عن طريق الدولة العثمانية[16].

2- التوسّع العثماني في البلاد العربية:

كان لظهور الصفويين الشيعة في إقليم الأناضول العثماني بالنسبة للعثمانيين، من الأخطار التي تهدّد سلامة الدولة العثمانية السنية. ولذلك بدأ الاحتكاك بين الطرفين، كانت فيه الغلبة في كثير من الأحيان لصالح العثمانيين. كما وجدت قبائل الحدود من التركمان، الّذين كان العثمانيون يحاولون إخضاعهم لسيطرتهم في الشاه إسماعيل الصفوي، حاميًا وزعيمًا تهوي إليه نفوسهم أكثر من هواهم للسلطان العثماني، رمز المذهب السني[17]. إن تبني الدولة الصفوية للمذهب الشيعي، وسعيها

بكل الطرق إلى نشره خارج حدود إيران، من العوامل التي أثارت حفيظة العثمانيين وعزمهم على وضع حد لطموحات هذه الدولة، التي استطاعت أن تحتلّ مدينة كوتاهية ومحاصرة بورصة في الأناضول، مما جعل العثمانيين يعتمدون على سياسة الاضطهاد الديني ضد الشيعة المقيمين في بلادهم[18]. يعدّ وصول سليم الأول [19]إلى سدة الحكم، بداية تصادم حقيقي بين العثمانيين والشيعة خاصة عندما افتك السلطان سليم من شيخ الإسلام "صاري حوريز" وهو أعلى مرجع ديني في الإمبراطورية بفتوى تخرج الشاه إسماعيل وأتباعه من الجماعة الإسلامية وتبيح ذبحهم وقتلهم.

وكان لسليم ما أراد حيث أضفت هذه الفتوى الشرعية على دخول سليم الحرب[20]. اشتعلت نار الحرب بين الطرفين عام 1514 شمال تبريز –عاصمةالصفويين–في موقعة تسمى جالديران. وكانت النتيجة، انتصار القوة العثمانية وانكسار الصفويين، ودخل السلطان سليم الأول مدينة تبريز مؤيَّدًا ومرحّبًا به من قِبل سكان المدينة، واعتبروه محرّرهم من الضغط الشيعي[21].

من نتائج هذه الحرب، انضمام منطقة ديار بكر والمدن الشرقية في الأناضول إلى الدولة العثمانية وكذا شمال العراق لتفتح بقية هذه المنطقة في عهد سليمان القانوني[22]، كما استفاد العثمانيون أيضًا من الجانب الاقتصادي والاستراتيجي. فأما الشق الأول، تمثّل في سيطرتهم على الطرق التجارية في اتّجاه الشرق، أما الشق الثاني، فيكمن في تحوّل هضبة الأناضول إلى سدّ يحمي الحدود الشرقية العثمانية[23].

كما يعدّ التوسّع العثماني في البلاد العربية، في بداية القرن السادس عشر، نتيجة من نتائج الصراع السياسي والمذهبي بين الدولة العثمانية والدولة الصفوية. حيث كان ظهور هذه الأخيرة على مسرح الأحداث، سببًا من أسباب تحوّل وجهة العثمانيين من الغرب إلى الشرق. إذ اعتبرت ظهور الصفويين خطرا على المنطقة العربية[24]، وتفطّن إلى نواياهموأطماعهم لها، مما استوجب عليه الشروع في الزحف على البلاد العربية، فاستولى على المناطق المتأخّمة لدولة المماليك. وبذلك يبدأ الصراع بين العثمانيين وسلطنة المماليك في مصر بقيادة السلطان قانصوة الغوري[25].

لقد كان السلطان سليم الأول مدفوعا نحو فتح بلاد الشام من أجل منع وصول المد الصفوي الشيعي إلى البلاد العربية. ومن ناحية أخرى تلك الاتّصالات التي كشفها العثمانيون بين الصفويين والمماليك، والتي كان الهدف منها الحيلولة دون سقوط المنطقة بيد العثمانيين. ويرى المؤرّخ

"ابن أبي السرور البكري" في كتابه "الكواكب السائرة في أخبار مصر" "أنه عام 1516م، توجّه الجيش المملوكي من القاهرة إلى الحدود الشمالية السورية هو السبب المباشر في نشوب معركة مرج دابق"[26]. التقى الطرفان بهذه الموقعة، وانهزم فيها السلطان الغوري وقتل. والسبب في ذلك حدوث خلاف في صفوف جيشه المؤلف من المماليك، إلى جانب ذلك عدم التوازن في القوى بين الطرفين. بعد هذه المعركة، توسّع سليم على عدّة مدن منها: حمص، دمشق وحماه، وخرج السكان حاملين المصاحف والأعلام، مرحّبين بالفاتحين، حتى أن الخطيب أضاف في خطبته عبارة "خادم الحرمين الشريفين"[27].

بعد مقتل السلطان قانصوة الغوري في معركة مرج دابق، وصل الخبر إلى مماليك مصر، أين انتخبوا طومان باي[28] سلطانًا عليهم يتولى الدفاع عن سلطنة المماليك في مصر، إلا أن طومان رفض هذا المنصب في البداية لعدّة أسباب أهمها، الانقسامات التي كانت بين المماليك، وكذلك الأوضاع الاقتصادية المتدهورة التي كانت تعيشها مصر[29]. في هذه الأثناء تقدّم الجيش العثماني نحو مصر، مستوليًا على المدن التي كانت في طريقه منها غزة. ووصل الجيش إلى حدود القاهرة، أين التقى الطرفان عام 1517م بالريدانية، أين انهزم جيش المماليك وتفرّق. فدخل السلطان سليم القاهرة بعدما فتحت أبوابها أمام العثمانيين المنتصرين[30]. وبما أن المماليك يعرفون مداخل ومخارج المدينة، نشبت حرب داخل مدينة القاهرة، حقّق فيها المماليك انتصارات عديدة، إلا أنهم انكسروا في النهاية وانهزموا ولجأ السلطان طومان باي إلى الجنوب بإحدى القبائل البدوية من أجل تنظيم المقاومة، إلا أن هذه القبيلة خافت من بطش العثمانيين، فسلّمته لهم[31]. وبعدما وقع طومان باي في الأسر، أراد السلطان الإبقاء على حياته لما رأى فيه من ذكاء وفطنة وشجاعة، إلا أن هناك من أوغر صدر السلطان عليه فأمر بشنقه. وهكذا دخلت مصر تحت الحكم العثماني في شهر أفريل عام 1517م. كما أمر بعدم التعرّض للمماليك في وظائفهم وأموالهم من أجل الاستفادة منهم في إدارة البلاد[32]. بعد أن أصبحت مصر تحت النفوذ العثماني، توجّهت أنظارهم نحو البلاد العربية الأخرى المجاورة منها منطقة الحجاز وبلاد اليمن والعراق. فبالنسبة للحجاز، فقد دخل تحت السيادة العثمانية سلميًّا، حيث أعلن شريف مكة ولأنه للعثمانيين من خلال إرسال ابنه بمفاتيح الحرمين الشريفين، فأجازه العثمانيون بتفويض منهم بحكم الحجاز[33]. لقد ترتّب على بسط السيادة العثمانية

على إقليم الحجاز، ظهور العثمانيين في البحر الأحمر وحمايته من الخطر البرتغالي الزاحف على المحيط الهندي. ويرى كثير من المؤرّخين أن التوسّع العثماني على الحجازواليمن كان سببه وجود الخطر البرتغالي والتهديد المباشر للأماكن المقدّسة خاصة وللعالم العربي والإسلامي عامة[34].

كان التوسّع على إقليم اليمن سلميًّا في بداية الأمر، إلا أن نزاعًا وقع بين المماليك على حكم اليمن. وخوّفًا من استغلال البرتغال لهذا الانشقاق، سارعت الدولة العثمانية إلى إرسال حملة بقيادة سليمان باشا الخادم عام 1538م لفض النزاع. إلا أن التوترعاد من جديد بين اليمنيين والعثمانيين، نتج عنه خروج العثمانيين من صنعاء وعدن عام 1636م[35] .

أما فيما يخص العراق، فقد أصبح جزءًا منه تحت النفوذ العثماني منذ معركة جالديران عام 1514 بين العثمانيين والصفويين، وضمت المناطق الشمالية في عهد السلطان سليم الأول وبقيت الأجزاء الأخرى تحت السيطرة الصفوية إلى أن جاء عهد سليمان القانوني، الّذي تزعّم حملة واتّجه بها صوب بغداد عام 1534، وضمّها إلى النفوذ العثماني[36]. ثم اتّجه نحو الجنوب، أين قام بزيارة قبور أئمة الشيعة لكسب تعاطفهم. وفي هذه الأثناء، قدّم حاكم البصرة مفتاح المدينة، لتصبح هذه الأخيرة تابعة للنفوذ العثماني. وأصبح العراق بشمالهوجنوبه خاضعًا للدولة العثمانية، إلا أن المنطقة شهدت اضطرابات وثورات لم تتوقّف بسبب الوجود الصفوي، الّذي حاول استرجاع نفوذه. إلا أن محاولاته باءت بالفشل، ليعود العراق في الأخير للسيادة العثمانية عام 1847 نهائيًا حتى الحرب العالمية الأولى[37].

3- الأوضاع السياسية:

يتّفق الكثير من المؤرّخين الّذين اهتموا بتاريخ الدولة العثمانية على وصف الحكم العثماني في البلاد العربية على أنه كان حكما سطحيا، ولم تصل إلى تجذير وترسيخ حكمها بشكل قوي في هذه البلاد، ويُرجع الكثير من الدارسين ذلك إلى تمسّك العثمانيين الشديد بمبدأ المحافظة على النظم[38] الّتي وجدوها أمامهم في المناطق التي توسّعوا فيها واقتصارهم على إدخال بعض التعديلات التي كانوا يرونها تحقق السيادة العثمانية[39].

وكانت تقتصر وظيفة الدولة لدى العثمانيين على تأمين الحماية لممتلكاتها من الأطماع الخارجية، حيث تقع هذه المهمة على عاتق المؤسسة العسكرية،والمهمة الثانية جمع الضرائب، والمهمة

الثالثة تمثّلت في حل المشاكل والخصومات بين الناس. أما ما يخص المهام الأخرى غير تلك المذكورة، فكانت تلقى على عاتق الطوائف[40] والمؤسسات الاجتماعية والدّينية، إلى جانب ذلك استعانت الدولة العثمانية ببعض الأسر المحليّة والشخصيات الدينية والأعيان والوجهاء، لإدارة شؤون ولاياتها ورعاية مصالحها. وقد وجدت تعاونًا من هؤلاء الوسطاء، حتى أن في أحيان كثيرة، شهدت هذه الفعاليات تنافسا كبيرًا فيما بينها لتقديم خدماتها للدولة العثمانية، وفي المقابل اعترفت الدولة بهموقدّمت لهم امتيازات[41]. على عكس ذلك، لم ترد الدولة العثمانية إدخال تغييرات في نظم الحكم والإدارة في البلاد العربية بل كانت تودّ فقط ضمان ولائها ونفوذها في المنطقة. ومن أجل ذلك حرصت على اتّباع أسلوب سياسي ضدّ القوى المحليّة وتجريدها من قوّتها، كما اعتمدت على مبدأ فرق تسد الّذي يقوم على إثارة الضغائن والأحقاد والصّراعات بين هذه القوى حتى تضعف ولا تقدر على تهديد السيادة العثمانية على مناطق النفوذ[42].

يجمع المؤرّخون على أن عدم وجود سياسة واضحة ومحدّدة داخل مناطق نفوذ الدولة العثمانية في البلاد العربية، كان من نقاط الضعف الرئيسية في الحكم العثماني، وما شهده القرن الثامن عشر من اضطرابات واختلالات داخل سلطة الدولة العثمانية، إلا دليل على ضعفها في تسيير الشؤون العامةوالخاصة، كما لم تستطع عثمنة البلاد العربية وإذابتها في بوتقة الإمبراطورية العثمانية[43].

كما يوجد تصوّر آخر لسيطرة الدولة العثمانية، يكمن في كون الحكم كان عسكريًا، ويعود السبب إلى أن النزعة العسكرية لم تكن نزعة طارئة بل كانت نزعة أصيلة ومتجذّرة، وأن المؤسسة العسكرية لعبت دورًا بارزًا عبر مختلف فترات تاريخ الدولة العثمانية. إذ جعلت كافة المناصب الحكومية تدار من قِبل العسكريين، إذ أن هؤلاء كانوا بعيدين كل البعد عن الرعيّة. ولذلك، كانت النتيجة الحتمية هي حدوث انفصال وقطيعة بين الحكّام والرّعيّ[44].ويرى المؤرّخ "عبد العزيز الشناوي" في السياسة العثمانية للبلاد العربية: "أن هذه الأخيرة كان لها آثار سيّئة في الحكم، حيث تميّزت بسوء التسيير الإداريواتّساع الهوة بين الحكام والرعيّة واعتمادها على النظم القديمة التي أدّت إلى تأخّر العالم العربي وتخلفه. كما شاعت أيضًا ميزة الاستعلاء التي حالت دون انصهار وإدماج

الشعوب التي كانت تحت النفوذ العثماني". ويقول أيضًا: "أن لولا الصلة الدينية، ما كان هناك ارتباط ولكان التباعد تامًا وشاسعًا"[45].

وفي الأخير ورغم هذه المميّزات السلبية في الحكم العثماني للبلاد العربية، لا ينكر أحد الإيجابيات التي تميّز بها، ونأخذ على سبيل المثال لا الحصر، حالة المجتمع العربي تحت النفوذ العثماني واستمتاعه بالاستقرار السياسي ولو نسبيًّا، وكذا استعادته لوحدته السياسية وترسيخ مبدأ التضامن الإسلامي بين العالم العربي والدولة العثمانية خلال فترة الحروب التي شاركوا فيها إلى جانب الإمبراطورية[46].

الأوضاع الاقتصادية:

شهدت التّجارة العربية في العهد العثماني ازدهارًا وتطوّرًا كبيرين نتيجة إلغائها للقيود الجمركية الّتي كانت تعيق الأفراد في أداء نشاطهم الاقتصادي.وكانت النتيجة هي استمرار التبادل الاقتصادي والتجاري بين المناطق العربية الإسلامية[47]. ولقد وجدت التجارة التشجيع الدّائم من قِبل السلطة المركزية، ويظهر الاهتمام العثماني بها من خلال العناية الفائقة التي أولتها للطرق التجارية من خلال بناء الخانات48 لخدمة القوافل وتوفير الحماية العسكرية برًا وبحرًا،وتخفيض الرسوم الجمركية ومنح الامتيازات والتسهيلات لتنشيط الجانب التجاري[49]. لقد اهتمّت الدولة بالجانب التجاري، حيث وضعته في مقدّمة اهتماماتها. إذ كانت تجنّد كل إمكانياتها الماديّة والبشرية والمعنوية لإنجاحها. وقد كانت السلطة المركزية تشدّد على الولاة توفير كل الشروط الضرورية المتاحة لإنجاحها دون أية قلائل أو اضطرابات، كما عملت على تحسين الحصون والقلاع التي تحمي طرق القوافل، وزادت عن ذلك تخصيص نسبة من ميزانيات الولايات لتمويل القوافل بما تحتاج[50]. وتظهر آثار السياسة العثمانية وتطوّر التجارة في البلاد العربية إلى عودة النشاط الاقتصادي إلى الأسواق العربية منذ القرن السادس عشر بسبب تعفّن الأوضاع السياسيةوالأمنية للمنطقة قبل هذا التاريخ، والأكثر من ذلك، ظهور وكالات تجارية متخصّصة، أصبحت فيما بعد منظمات تجارية تتبع أساليب مختلفة في التعامل التجاري[51].

أما فيما يخص النشاط الصناعي، فقد ارتبط بنظام الطوائف التي كانت عبارة عن هيئات مستقلة ذات تنظيم خاص يَنْظَمُّ إليها كل من يمارس الصناعة أو التجارة. وهي عبارة عن تنظيمات اجتماعية شعبية ضمّت إليها أصحاب الصنائع في المدن الإسلامية، وتتّصف هذه الطوائف

بضوابط أخلاقية رفيعة، وتذكر بعض المصادر أن ظهور الطوائف كان قبل التوسّع العثماني على البلاد العربية[52].

لقد أبقت الدولة العثمانية على هذه التنظيمات الاقتصادية والاجتماعية دون المساس بها، ورأت أن هذا التنظيم يسهّل عليها تسيير شؤون المجتمعات العربية؛ كما اعتبرته نظامًا يعمل على تماسك المجتمع وصموده وتربية الناس وتهذيبهم والترفيه عنهم. أما عن النظام الداخلي للطوائف، فكانوا يتّبعون نظامًا واحدًا رغم تعدّد الأصناف، وكانت كل صناعة تتركز في حي خاص.

ووجدت شوارع تحمل اسم الصنعة أو الحرفة كحي الدبّاغين، حي النحّاسين، حي الجزّارين، وحي الحدّادين...وغيرها[53]. وكانت أهم المصنوعات الرائجة خلال الحكم العثماني للبلاد العربية المنسوجات القطنية والصوفية والحريرية؛ وأهم المناطق: (العراق، سوريا ومصر)، إلى جانب صناعة الزيوت والصابونوالشمع، بالإضافة إلى حرفة النقش على الخشب وعلى المعادن. وكانت تعتمد الصناعة العربية على المواد الأولية التي كانت تستورد من أوربا إلا أنها اعتمدت على أساليب تقليدية وبدائية وعلى الجهد العضلي[54]. ومع بداية القرن التاسع عشر، وبسبب غزو الصناعات الأوربية للأسواق العربية، بدأت الصناعة العربية تفقد بريقها وقوّتها؛ ويرى بعض المؤرّخين المعاصرين "أن العثمانيين حتى وهم في عز القوة وأحسن الأحوال، كانوا متخلّفين كثيرًا عن معاصريهم من الأوربيين فيما يتعلّق بالمسائل الاقتصادية، ويرجع ذلك إلى تخلّف الفكر الاقتصادي وانعدام أي محاولة جادّة لتطوير قوى الإنتاج، وعدم انتهاج سياسات تجارية واضحة المعالم"[55].

أما النشاط الزراعي، فقد أخذ حضّه من اللامبالاة من قِبل السلطة الحاكمة نتيجة الاضطرابات السياسية والعسكرية التي اجتاحت البلاد العربية في العهد العثماني، التي لم تعطيها الاهتمام والعناية اللازمة؛ وذلك بسبب عوامل ومؤثّرات كثيرة أثّرت على النشاط الزراعي، وأهمّها نظام الإقطاع الّذي استخدمته السلطة العثمانية كأداة في تقوية السيادة العثمانية[56].

وتميّزت الزراعة في هذه الفترة بكونها زراعة اكتفائية نتيجة تلك الأفكار التي كانت سائدة والمتمثّلة في الاكتفاء بالقليل، رغم أن البلاد العربية توفّرت على كل الشروط اللازمة والإمكانيات لأي تطوّر اقتصادي كما شهدته أوربا،ويرجع كثير من المؤرّخين ذلك إلى طبيعة النظام العثماني السائد[57]. إلى جانب ذلك هناك ميزة أخرى تتمثّل في كثرة الضرائب وتنوّعها على الفلاحينوالمزارعين، إذ كانت

هناك ضرائب مفروضة على الأرض، وضرائب على المحاصيل والحيوانات والأسواق الفلاحية؛ واختلفت هذه الضرائب من منطقة إلى أخرى، وذلك حسب الحكام وطريقة تسييرهم لشؤون هذا القطاع[58]. ومن العوامل التي ساهمت أيضًا في تدهور حالة الزراعة والمزارع والمزارعين، تتمثّل في تنصّل الدولة من مسؤولية توفير الحماية الضرورية للفلاح من جشع الإقطاعيين والباشاوات، وكذا تعرّض المزارع إلى غزوات القبائل البدوية دوريًّا حسب العوامل الطبيعية والمناخية؛ والعامل الآخر الّذي لا يقل أهمية عن العوامل السابقة هو دور اليهود في استغلال عوز الفلاح المادي، إذ راحوا يشجعونه على الاقتراض بفوائد كبيرة فيصبح الفلاح غير قادر على تسديدها، مما يعرّض أملاكه وأرضه إلى المصادرة[59].

ومجمل القول فيما يخص هذا الجانب، أي الأوضاع الاقتصادية للبلاد العربية في العهد العثماني، نلخّصها في جملة واحدة وهي، أنها تأرجحت بين الأحسن في بعض النشاطات والأسوأ في نشاطات أخرى مما تولّدت عنه أزمات اقتصادية عان منها المشرق العربيوسائر البلاد العربية الخاضعة للإمبراطورية العثمانية.

الأوضاع الثقافية و العلمية:

لقد خضع المشرق العربي منذ القرن العاشر هجري (16م) للخلافة العثمانية، وبرز بهخلال هذا العهدالعديد من الحواضر العلمية والثقافية، في مقدمتها مدينة القاهرة بمصر ومكة المكرّمة والمدينة المنوّرة وبلاد الشام[60].

وتأتي القاهرة على رأس الحواضر العلمية المذكورة، فقد تنوّعت المراكز العلمية بها وحفلت بالعديد من المدارس، كالمدرسة الأشرفية، المدرسة الصرغتمشية[61] والمدرسة الصلاحية2[6].

كما وجد بها العديد من الزوايا التي كانت الدراسات فيها تميل للاتّجاهات الصوفية، بالإضافة إلى الدراسات الإسلامية العامة، ومن أهمها: زاوية الخضري والزاوية القريبة من المشهد الحسيني، والزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة[63].

وكانت أكثر مساجد مصر مراكز فكر وإشعاع، جلس بها العلماء وتحلق حولهم الطلاب، واكتسبت بعض هذه المساجد شهرة في مجال التعليم منها: جامع عمرو، جامع شيخون ومسجد الإمام الشافعي بالإضافة إلى جامع المشهد الحسيني[64].

أما الجامع الأزهر[65] بالقاهرة، فقد احتلّ الصدارة في مصر بل وفي العالم الإسلامي. ومن أسباب احتلاله لهذه المكانة، انقراض الحضارة العربية الإسلامية بالأندلس، ووقوعه في مكان يتوسّط العالم الإسلامي، وقربه من الحجاز، بالإضافة إلى أهمية مصر الاقتصادية. ولهذا اجتمع به عدد كبير من العلماء الوافدين عليه من مناطق مختلفة بالمجاورين[66]. وقد كان بعض هؤلاء المجاورين يقيمون بالقرب منه، في حين يقيم البعض الآخر داخله، وينقسمون إلى طوائف، لكل منها حارة ورواق خاص بها[67]. ومن أقدم الأروقة التي شهدها الأزهر رواق المغاربة، وهو رواق كبير مخصّص لأهل المغرب الإسلامي. وقد أصبح الرّواق بمثابة مؤسسة ثقافية واجتماعية تقدّم خدمات لأبناء المغرب الإسلامي.

كانت مكة والمدينة المنوّرة مركزين مهمّين من مراكز العلم في الدولة الإسلامية، وقد دبّ النشاط في الحركة العلمية بهما نتيجة ازدياد عدد العلماء الّذين طاب لهم مجاورة بيت الله الحرام. وقد كان المسجد الحرام أهم المراكز العلمية والتعليمية في الحرمين الشريفين لتعدد حلقات الدروس به، والتي كان يعقدها مشايخ من أجلّة علماء الحرم، وآخرين وافدين عليه من مختلف مناطق العالم الإسلامي للحج والمجاورة[68].

أما مدينة دمشق، فقد اشتهرت بجامعها الأموي[69] الّذي تعدّدت به حلقات الدروس. كما وجد بها عدد كبير من المدارس، حيث قدّر بِ 159 مدرسة، بعضها مخصص لتدريس القرآن الكريم والآخر للحديث الشريف، وبعضها للمذاهب الفقهية وغيرها من العلوم[70].

كما وجدت بالمشرق العديد من المدارس والزوايا والمساجد التي قامت بمهمة التعليم، غير أنها لم ترق إلى مستوى المراكز العلمية التي حفلت بها الحواضر الثلاثة السالفة الذكر، فبعضها كان بيت المقدس ونابلس وحلب[71].

هذا وبالرغم من تنوّع مراكز الثقافة التي ازدهرت بها حلقات الدروس العليا بالمشرق، فقد وصفت الحياة الفكرية والعلمية به بالتراجع أيام العثمانيين،وأوعز "عبد القادر عطا "ذلك إلى تحوّل القسطنطينية إلى عاصمة الدولة،ومركز ومحور ارتكاز في العالم الإسلامي، وبالتالي مركز النشاط العلميوالثقافي في الدولة التي تتكلّم اللغة التركية[72].

كما حمّل "عمار هلال" العثمانيين مسؤولية إصابة العالم العربي الإسلامي بالضعف الثقافي والحضاري، معتبرًا القرن العاشر الهجري أول مرحلة من مراحل التقهقر الّذي مسّ جميع النواحي، وفي مقدّمتها العلوم وأصحابها وهي الظاهرة التي استمرت حسب رأيه طيلة العهد العثماني[73].

وهكذا فقد أجمعت آراء هؤلاء الباحثين على اتّسام الحركة العلمية والأدبية بالرّكود خلال العهد العثماني. ولكن علينا أن نميّز بين نوعين من العلوم: العلوم العقلية التي أصابها تدهور كبير واختفت في بعض المناطق، والعلوم النقلية التي عرفت تراجعًا محسوسًا عما كانت عليه في العهود السابقة، رغم أننا نجد العصر يعجّ بالمحدثين والفقهاء والأدباء والشعراء والمؤرّخين. ولا ينكر أحد أن هذا العصر قد أنجب العديد من العلماء الأفذاذ المدرسين في مختلف العلوم النقلية خاصة العلوم الإسلامية[74].

الهوامش:

1 – عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي (1516–1923) (دار المعرفة الجامعية، إسكندرية 1994)، ص22.

2 –غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية والمشرق العربي (1288–1916)، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 2007، ص53.

3 –نفسه، ص53.

4 –غربي الغالي: نفسه، ص53.

5 – عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص23.

6 – عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص23.

7– الظاهر بيبرس: يقال أنه من أصل تركي بيع في صغره في سوق الرقيق. ويقال أن الّذي اشتراه هو الصالح أيوب والي حماة أعتقه لما رأى فيه من حسن الخلق و الأخلاق. تقلّد مناصب عدّة في الحكم و أصبح للمماليك قوة خاصة بعد مقتل آخر سلاطين بني أيوب. واجه في عصره خطران: خطر الصليبية وخطر المغول. التقى بالمغول في موقعة عين جالوت وكان النصر للمماليك. وبالتالي تبوّأ مكانة عظيمة في حكم دولة المماليك التي ستحكم مصر والشام لفترة طويلة. توفي سنة 1277م بعد مرض عضال.

8 – عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص23.

9 – غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص54–55.

10 – عمر عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص24.

11 – عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص25.

12 – نفسه، ص26.

13– هو السلطان أبو النصر قانصوة بن عبد الله الجركسي المشهور بالغوري نسبة إلى طبقة الغور بمصر. تربع على العرش مدة 15 سنة. كان ذا رأي و فطنة، كثير الدهاء. اهتم بالعمران وبناء المدارسوالمساجد، كما رمّم بعض أروقة المسجد الحرام. خاض حربًا

ضد السلطان سليم في موقعة مرج دابق، كانت النهاية فيها لصالح سليم بعد مكيدة من خير بك و الغزالي و هما من جماعته و ضرب رأسه و قتل .

14 - نفسه، ص26.

15 - نفسه، ص27.

16- نفسه، ص27.

17- عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص68.

18 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص56.

19 - سليم خان بن عثمان: تاسع ملوك بني عثمان، ولد سنة 872هـ، تولى الحكم في سن 46 سنة. كان ملكا قاهرًا و سلطانًا جبّارًا، قوي البطش، شديد اليقظة، يحب المطالعة و أخبار الملوك. توسّعت الدولة العثمانية في عهده على مناطق عديدة في العالم العربي.

20 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص57.

21 - نفسه، ص57.

22 - سليمان القانوني بن السلطان سليم خان الحادي عشر، من ملوك بني عثمان: ولد سنة 900هـ و تولى الحكم سنة 926هـ بعد وفاة أبيه. يذكر عليه أنه كان سلطانًا سعيدًا، رؤوفًا، صادقًا، لا يعرف الغل و الخداع، لا يعرف المكر و النفاق. يذكر أيضًا أنه شارك في أربعة عشر غزوة، انتصر في معظمها. اهتم بالعلم، فبنى أربعة مدارس، أشهرها المدرسة الكائنة بمرجة بدمشق. توفي سنة 974هـ.

23 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص57.

24 - عمر عبد العزيز عمر: نفس المرجع، ص69.

25 - نفس المرجع، ص71.

26 - مرج دابق: موقعه التقى فيها جيش سليم العثماني و سلطان المماليك قانصوة الغوري و هي واقعة شمال حلب.

27 - محمد فريد بك: تاريخ الدولة العلمية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، ص192.

28 - هو سيف الدين طومان باي: كان من أعيان المماليك. بويع بالسلطة بعد خلع جان بلاط. كوَّن جيشًا، و خاض حرب الشوارع ضد الجيش العثماني. حقق انتصارات، إلا أنه سقط في الأسر و قام السلطان سليم بإعدامه شنقًا.

29 - عمر عبد العزيز عمر: المرجع نفسه، ص79.

30 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص63.

31 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص80.

32 - غربي الغالي: نفسه، ص63.

33 - عمر عبد العزيز عمر: نفسه، ص97.

34 - نفسه، ص95.

35 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص65.

36 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص66.

37- عمر عبد العزيز عمر: تاريخ المشرق العربي، ص94.

38- هذا الأسلوب شائع عند العثمانيين، و هو عدم التغيّر في الحياة العامة و الشؤون الداخلية للمناطق التي أصبحت تحت نفوذهم، و الجزائر، على سبيل المثال. لم يقم العثمانيون بتغييرات جذرية بل تركوا الشؤون الداخلية لأهل المنطقة.

39 - غربي الغالي: دراسات في تاريخ الدولة العثمانية و المشرق العربي، ص66.

40 - أصبحت لهذه الطوائف في العهد العثماني مكانة عظيمة، و هذا بفضل الدور السياسي والاقتصادي و الاجتماعي الّذي أعطي لها. و ازدادت بذلك تمسّك الشعوب بها، حيث أصبحت الحصن المنيع الّذي تحتمي به الشعوب من بطش الحكّام.

41 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص67.

42 - نفسه، ص68.

43 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص69.

44 - نفسه، ص70.

45 - نفسه، ص71.

46 - نفسه، ص72.

47 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص99، نقلا عن الوجود المغربي في المشرق المتوسطي في العصر الحديث، ليلى الصباغ.

48 - جمع خان، عبارة عن نزل يأوي إليه التجار للمبيت و الاستراحة من مشاق السفر، و الخان عبارة عن بناء في وسطه ساحة كبيرة مربعة تسمى الحوش.

49 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص99.

50 - نفس المرجع، ص99.

51 - نفسه، ص100.

52 - نفسه، ص106.

53 - غربي الغالي: نفس المرجع، ص107.

54 - نفسه، ص109.

55 - نفسه، ص110.

56 - نفسه، ص111.

57 - غربي الغالي: المرجع نفسه، ص118.

58 - نفسه، ص121.

59 - نفسه، ص223.

60 - لزغم فوزية: الإجازات العلمية لعلماء الجزائر العثمانية، الفصل 3، ص155، نقلا عن عبد القادر أحمد عطا: التصوّف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس في عصر النابلسي.

61 - هي مدرسة صرغتمش المعروفة بجامع صرغتمش، الّذي أنشأه سيف الدّين صرغتمش الناصري في سنة (757هـ-1256م).

62 - بناها السلطان صلاح الدين الأيوبي سنة (572هـ-1271م)، و جعل التدريس و النّظر بها للشيخ نجم الدّين الجنوشاني، و رتب له راتبًا. و هي مجاورة لضريح الإمام الشافعي. و قد كان التدريس بها مشروطًا لأعلم علماء الشافعية.

63 - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص-ص348-351.

64 - أحمد شلبي: موسوعة التاريخ الإسلامي، ج5، ص-ص348-351.

65 – بناه القائد جوهر الكاتب الصقلي مولى المعز لدين الله الفاطمي بعدما اختط الإسكندرية، و كان بناءه في شهر رمضان من سنة (361هـ-972م). و بدأت به حلقات دروس الفقه الشافعي في (365هـ- 975م). و كان قاضي القضاة أبو الحسن علي بن نعمان أول من جلس للتدريس به للسيوطي.

66 – يسمى العلماء و الطلاب "بالمجاورين" لسكناهم بجوار الأزهر. و نفس المصطلح يطلق على المقيمين بجوار المسجد الحرام.

67 – الحارة عبارة عن حجرات يضع فيها المجاورون متاعهم، و الرواق هو الفضاء الواقع بين العمودين، و كان يقرأ فيه الدرس لجماعات صغيرة، و تقام فيه الأذكار. و يتبع تقسيم الأروقة تارة التقسيم الجنسي، و تارة التقسيم المذهبي– جومبيه.

68 – هذا ما يستخلص من كتب تراجم الرجال في العهد العثماني، بحيث نجد أن عددًا كبيرًا من العلماء من مختلف مناطق العالم الإسلامي قد جاوروا و درسوا به، و منهم عدد من علماء الجزائر كالشيخ عيسى الثعالبي و الشيخ أحمد المقري...و غيرهم.

69 – بني الجامع الأموي في سنة (88هـ-658م) من طرف الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك. مكان كنيسة ماريو حنا. البدري، نزهة الأنام في محاسن الشام بيروت ط1.

70 – عبد الرحمن بن صالح: تاريخ التعليم في مكة، ص66.

71 – عبد القادر أحمد عطا: التصوف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس، ص62.

72 – عبد القادر أحمد عطا: التصوّف الإسلامي بين الأصالة و الاقتباس، ص62، نقلا عن جمال الدين الشيال.

73 – عمار هلال: العلماء الجزائريون في البلدان العربية الإسلامية فيما بين القرنين، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية 1995، ص- ص292-293.

74 – من الانتقادات الموجّهة إلى هذا العصر في العلوم الإسلامية، إغلاق باب الاجتهاد واقتصار المؤلّفين على الشروح و الحواشي، و الاختصارات و التعليقات.